العيـــد

بقلم: عمر فتال
المغرب

قل لي يا عدنان: " هل أساء إليك أحد أبناء الجيران؟ أتريد شيئا ما؟ هل ضربك أحد أبناء عمك؟ هكذا توالت عليه الأسئلة، وهو يخفي وجهه وراء يديه. اقترب منه أبوه، وقد ملك عليه الغضب نفسه، حاول أن يمسه إلاّ أن الصغير ابتعد عنه، ثم أسرع صوب الحجرة القريبة منه . فتنهدت أمه، وحركت رأسها في توتر، وضربت جدته كفا بكف، وهي تقول: « نفسي تحدثني بأن أحمد ضربه أو شتمه، فأنا أعرف جيدا، كم هو سليط اللسان واليد؟! " انفجر أحمد باكيا، وراح ينفي التهمة عنه بصوت متقطع: " والله العظيم ما ضربته، ولا شتمته فقد كنا نلعب صحبة ابنة عمي آمنة، وابن عمتي عبدالرحمن، وفجأة ابتعد عنا و..." من غير أن يكمل كلامه حركت رأسها هي الأخرى، وقد استبد بها الحنق، ثم دخلت الحجرة فوجدت عدنان جالسا على الأرض، الدموع تغمر خديه، وعيناه لاصقتان في الجدار المنتصب قبالته . أما أمه وأبوه وجده فكانوا يوالون طرح الأسئلة في إثر الأسئلة دون أن يظفروا ولو بجواب قصير . اقتربت الجدة منهم، أطلعتهم على ما قاله أحمد لها قبل قليل، وما إن أنهت كلامها حتى تفوهت أم عدنان في ذعر: " ألا تكون لسعته إحدى الحشرات، فالوقت كما ترون ليل والفصل فصل صيف؟" اضطرب الجد، وهو يسمع هذا التساؤل، وما برح أن نادى بصوت حاد: أحمد ... أحمد .. وقف الصغير أمامه خائفا: " قل لي أين كنتم تلعبون؟!" رد الطفل بصوت خافت: قرب سور البستان .

– هل صرخ عدنان عندما انسحب من اللعب .

– لا .. لا .. لم يصرخ . فكل ما فعل هو أنه نأى عنا، ناديناه لأن دوره كان قد حان،لكنه لم يجبنا، وحينما اقتربنا منه، ألفيناه يبكي، سألناه عن سبب بكائه، فلم يجبنا ...

اقترب الجد هذه المرة من عدنان قائلا بهدوء: أرجوك يا عزيزي قل لي هل تشعر بألم ما؟... أرجوك قل لجدك عما تشعر به ! " عوض أن يجيب أخفى وجهه وراء يديه من جديد، فيما راحت أمه تمس ساقيه بيدين مرتعشتين، فسحب رجليه، وما عتم أن وضع رأسه فوق ركبتيه. اقتربت جدته منه ثم سألته في حنان:" هل ضربك أحد أبناء عمك، لا تخف كل ما عليك هو أن تخبرني، وسوف ترى ماذا سيلحق به؟ " " تتابعت الأسئلة والافتراضات، وهو يبكي بكاء صامتا!! تنهد أبوه حانقا، وسرعان ما حركه؟ إذا لم تفصح عما بك سوف أوصد باب هذه الحجرة، وأتركك وحدك وسط هذا الظ.." قبل أن يكمل كلامه، ربت الجد على كتف ابنه، وهو يخفف من ثورة غضبه، مس شعر عدنان قائلا: " أرأيت كيف أنك أغضبت أباك .. أرجوك قل لي ما بك .. اهمس في أذني .. لا تخف .. أخبرني " رفع الصغير رأسه، وأمام اندهاش الحاضرين، طفق يكلم جده بصوت خفيض، أنهى الطفل كلامه . فابتسم الجد ثم قال: " الحمدلله، كنت أعتقد أنه يشعر بألم ما " تريث ثم قال: عدنان يا جماعة يريد أن يذهب إلى منزلهم في المدينة .. هذا ما في الأمر .." أصدرت أمه زفرة عميقة، وحركت جدته رأسها .. ساد الصمت هنيهة، حينما قال الأب، وقد خف غضبه: " ما هذا يا بني ألم تقل لي ونحن في الطريق إلى البادية، أريد أن أبقى في منزل جدي طيلة عطلة العيد !" ضحكت الجدة، وهي تؤكد كلام ابنها: " نعم هذا ما قاله لي فور نزوله من السَّيْ...." دون أن تكمل كلامها، قاطعها عدنان في صرامة واضحة:" أريد أن أذهب إلى منزلنا في المدينة".

ربتت أمه على كتفه ثم قالت: امسح يا عزيزي دموعك، ودع عنك فكرة الذهاب .. يومان على الأكثر،ونعود إلى منزلنا في المدينة .. امسح دموعك .. انظر كيف أنك أقلقت راحة كل من جدك وجدتك اللذين طالما اشتقت إلى زيارتهما ..

بدلا من أن تمتد يده إلى خديه ليكفكف دموعه، ضرب على جبهته بقوة ثم صرخ: أريد أن أذهب إلى منزلنا الآن .. أريد أن أحتفل بالعيد هناك في المدينة..

قرفص أبوه إلى جانبه، وهو يتساءل: " ألم نتفق على أننا سنحتفل بالعيد في منزل جدك، وبعد يومين أو ثلاثة نعود إلى منزلنا!

– قلت أريد أن أعود إلى المدينة .. أريد أن يجدني صباح العيد هناك .. في البادية لا توجد الدكاكين، ولا الحلويات، ولا مدينة الألعاب .. فماذا سأفعل في الصباح

إذا لم تكن هذه الأشياء؟!

نقضي سويعات مع جدك، بعدها نعود إلى المدينة، وبإمكانك لحظة ئذ أن تشتري ما بدا لك، أما مدينة الألعاب كما تعلم مفتوحة دائما في وجه الصغار ..

– أنا أريد كل هذه الأشياء في صباح العيد .. أرجوك هيا بنا إلى منزلنا في المدينة.

تجدد غضب الأب، فسارع الجد إلى تهدئته، وهو يكلم عدنان بصوت وقور: " ما هذا يا صغيري إلى هذا الحد تكره جدك وجدتك؟!

ركز الصغير بصره في وجه جده ثم أجاب بكلام متقطع: " أنا لا أكرههما، ولكني لا أريد أن أحتفل بالعيد في البادية .. أنا أحب العيد في المدينة لأنه يكون جميلا بألعابه، وحلوياته، ومشترياته الكثيرة .. أريد أن أعود الآن، أسمعتم !؟

– انظر يا عدنان من النافذة، ألا ترى هذا الظلام؟!

– قلت لك أنا أحب أن أقضي العيد الجميل في المدينة لا في البادية!

– أصدر الجد زفرة عميقة، وهو يلتفت صوب ابنه: " ما العمل إذا؟".

– اتركه يبكي، فكلها عشر دقائق على الأكثر ويستسلم للنوم .

ابتسمت الجدة ثم قالت: إلى هذا الحد بلغت بك القساوة يا صالح، أنسيت، يا بني أن العيد على الأبواب؟! فمن العار أن تسيء إلى صغيرك في مناسبة كهاته ..

عوض أن يتكلم الابن، رد الجد: أرى أن تلبي رغبته ما دام يلح على الاحتفال بالعيد في ..

– أتريد منا أن نركب سيارتنا، ونقصد المدينة في وقت كهذا؟!

– لم أقل هذا، دعني أولا أكمل، اقضوا معنا هاته الليلة، وفي الصباح الباكر سافروا في حفظ الله.

أبانت أم عدنان عن أسنانها، وهي تقول:" هل نعتبر هذا طردا لنا في ليلة العيد السعيدة؟!

– معاذ الله يا ابنتي، ولكن ألا ترين بكاءه، فأنا لا أريد أن أراه حزينا في صباح العيد.

– أعرف قصدك، وأقدره، وماذا سيقول عنا الجيران؟

– لا تشغلي بالك بهذه المسألة، فسأطلعهم على جلية الأمر، وهم بعد ذلك سيقدرون الموقف.

خيم الصمت لحظة قبل أن يقطعه الجد ضاحكا: عليك يا عدنان أن تستيقظ في الصباح الباكر حتى تدرك العيد في المدينة .. امسح دموعك، واضحك..

ابتسم الصغير، وهو يمسح دموعه .

عندما تنفس الصبح، وأعد الأبوان العدة للرجوع إلى المدينة في وقت مبكر، افتقدا عدنان، بحث الجميع عنه في حجرات المنزل الكبير .. نادوا باسمه في هلع، خرجوا إلى حيث البستان، دخلوا منزل الراعي .. بحثوا وبحثوا، وقبل أن يقول طفل، لقد أيقظه أحمد وخرجا من المنزل، رأوه يضع يده في يد أحمد، والصدى يردد حديثهما المتبادل وضحكاتهما الصادقة .. اقتربا من أهل البيت، ومن غير أن يسألهما أحد شرع عدنان يتحدث مبتهجا، وأحمد يكمل بين الحين والحين بعض عباراته: زرنا السيد عبدالقادر المريض منذ مدة، والشيخ شعيب الذي يعيش وحيدا هناك قرب الهضبة، لقد ضحك معنا ودعا لنا بالخير .. كما زرنا أم عبدالله التي فقدت زوجها قبل أسبوعين، وألقينا تحية صباح العيد على العمة فاطمة التي تعيش وحدها منذ أن رحل ابنها إلى الخارج، وجلسنا بعض الوقت مع الطفل الأعمى ..

– ما اسمه يا أحمد؟!

– عبدالكبير .. نعم عبدالكبير " .

عقدت الدهشة ألسنة الجميع، ولما وضع عدنان يده في يد أحمد صائحا: هيا بنا إلى البيوت التي ينتظر أهلها زيارتنا ..

قال الجد: أسرعا أصلحكما الله، فماذا يكون العيد إذا لم تزوروا كل من يحتاج إلى الزيارة . ■